تهذيب الإسلام للنفس الإنسانية



من أهم الملامح الواضحة في حياة المجتمع المسلم أنه يعتنق الحق ويسير على ضوئه ويعمل في دائرته، دون أن يكون هناك أي تأثير خارجي عليه؛ لأنه يؤمن بأن جزاءه منوط بعمله فإحسانه لنفسه وإساءته لها.

وقد غرس الإسلام في نفوس الأفراد والجماعات أصول الحق ليتبعوها: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء: ٧)

أ.د. أحمد عمر هاشم (*)

وأنار القرآن الكريم الطريق أمام المسلم، مبينًا له أنه وحده الذي ينال مثوبة هدايته، وأنه وحده الذي ينال جزاء ضلالته، فلا ينجِّي اهتداؤُه غيرَه، ولا يُردِي ضلالُه سواه، وكل نفس وما حملتْ من وزرها، فلا تحمل وزر نفس أخرى؛ فلكلٍّ استقلالُه وجزاؤه على حدةٍ، قال الله سبحانه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الإسراء: ١٥)

وقد نعى القرآن على أولئك الذين وقعوا أسرى العادةِ والإلف تَجافِيَهم عن الحق، وضرب مَثَلَهم بمن ينادي على حيوانٍ يسمع الصوتَ ولا يَفهم له معنى، فهم في انهماكهم في التقليد الأعمى ووقوعهم فريسة التبعية البلهاء كمثل الصم البكم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠، ١٧١)

وهذا الصنف من الناس لم يعط نفسه استقلالها، ولم يمنحها حريتها في البحث عن الحق، وإنما حبسها بين أسوار التقاليد الموروثة، توثقها العادات البالية، وتمتهن كرامتها وإنسانيتها، وقد تابع الإسلامُ نفسية المسلم في سلوكها بالتقويم والتهذيب؛ لئلا تتأرجح بين مد الحياة وجزرها، فتتدهور قواها المعنوية تابعةً كلَّ ناعقٍ ومناديةً كلَّ

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

إنسانٍ: «أنا معك»، محسنًا كان أو ظالمًا، روى الإمامُ الترمذي بسنده عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعةً تقولون إن أحسن الناس أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم؛ إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»(١).

فإذا كان الله تعالى قد أعدَّ المسلم إعدادًا حقًّا، وهيَّأه لأسباب الحق والفلاح، بما ألهمه من رؤيةٍ واضحةٍ للخير حتى يتبعه، وللشرِّ حتى ينأى عنه، فليس للمسلم أن يكون إمعةً، ولم تعدْ له حجة في تعطيل ما أودعه الله في حسه ووجدانه.

فكيف به يقف على مفترق الطرق يميل مع رياح الحياة حيث تميل، لقد سوى الحقُّ النفسَ وألهمها فجورها وتقواها، قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٧ - ١٠)

وفي استقلال النفس الإنسانية حمايةٌ لمقومات الحق والخير التي أودعها الله في الإنسان، فلا يتأثر بالعوامل الخارجية والمؤثرات المحيطة به؛ فإذا كان قاضيًا أو شاهدًا أو مدرسًا أو قائمًا بالإصلاح بين الناس أو مقومًا لأعمال البعض أو نحو ذلك من مسالك الحياة التي يرتادها فإن عليه أن ينظر إلى الحق بغض النظر عن أي عامل آخر أو أي مؤثر خارجي؛ فإذا قامَ لحكم بين الناس أو القضاء فيهم أو طُلب منه أداء شهادة بالحق أو فصل في خصومة فعليه أن يتحرى جانب الحق والصواب، فلا تؤثر عليه صلةُ قرابةٍ أو نسب أو غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢)

وكما دعا الإسلامُ إلى المحافظة على قول العدل دون تأثر بصلة القرابة أو ما يدعو إلى الانحياز فكذلك حذَّر من أن تكون الكراهيةُ والبغضاءُ من دواعي الانحراف عن الحق والعدل فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

(المائدة: ٨)

وإن السلوك الإسلامي يتنافى مع الظلم، فيقيم المسلمُ العدلَ ولو على نفسه أو أقرب الناس إليه، ويتنافى مع الباطل فيقول الحقَّ ولو على نفسه، ويعدل مع العدو كما يعدل مع القريب والحبيب، فهو لا تحكمه تبعيةٌ تهدم شخصيته، ولا يجورُ على عقيدته الهوى، ولا تتسرب المحاباةُ إلى داخله، إنه يحيا بين الناس قوَّامًا بالقسط شاهدًا لله ولو على نفسه أو والديه أو أقربائه، قال الله تعالى:

(١) رواه الترمذي عن حذيفة، برقم (٢٠٠٧).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء: ١٣٥)

ويصون الإسلامُ الأمةَ الإسلاميةَ من التأثر بخصائص الغير وأفعاله التي لا تتفق مع روح الإسلام والتي تتنافى مع فضائله، وأما الاستبداد بالرأي أو التمادي في الخطأ فليس فيه من قوة الشخصية واستقلالها أدنى علاقة، بل إن ذلك يتنافى معها تنافيًا تامًّا؛ فإن الرجوع إلى الحق فضيلة، ولا يوصف من يرجع للحق بأنه فاقد الشخصية، بل إنه قويُّ الشخصية في ضبط النفس وكبح جماحها والاتجاه بها صوب الحق، فلا يتجمد عند الخطأ، بل يفيءُ إلى الحق أينما كان.

وكما أن استقلال الشخصية لا يتنافى مع الرجوع للحق فإنه كذلك لا يتنافى مع التعاون ومشاركة الأمة الإسلامية، فالمراد باستقلال الشخصية ألَّا يذوب سلوكُ الفرد في سلوك آخر، ولا تذوب الجماعة في جماعة أخرى، فلكل إنسان مقوماته وقدراته الخاصة، وحين يُسلَب هذه المقومات فلا تكون له حريته ورغبته المستقيمة المخلصة، فإنه يقوم حين يقوم بالعمل وهو مسوق إليه ومكره عليه، فلا يستشعر المتعة به، ولا يتذوق الرغبة الدافعة إلى إتقانه؛ ومن ثم يفقد روح النشاط والحيوية، ولا يُقبِل على العمل بجدٍّ وفاعليةٍ، بل يؤدي عمله وهو مكرَهٌ ومتبرمٌ، ولو تُرك الإنسان بلا توجيهٍ سديدٍ وأطلق لنفسه العنان دون رعاية وضبط ومن غير حدود فإن ذلك شر مستطير؛ لما يترتب على سلوكه بلا مقاييس من إطلاق نوازعه النفسية؛ فتنمو الأنانية والأثرة، ويتجاوز الحدود بلا رادع أو ضابط؛ ومن أجل هذا كله أرسى القرآن للشخصية الإسلامية معالم محددة لا تتعداها، بحيث يجد المسلم ثواب عمله الصالح، ويتحمل تبعة إساءته فقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ (فصلت: ٤٦)

هذا بالنسبة للفرد فشخصيته محوطة بدائرة الحق والعمل الصالح.

وأما بالنسبة لعلاقته مع الناس فإن تلك العلاقات مع ما وفره الإسلامُ لها من الاحتفاظ بالمقومات بحيث لا تذوب في الآخرين؛ فإنه لم يمنع الإنسان أو الجماعة من التعاون والمشاركة، بل أمر بذلك إذكاءً لروح التعاون وإبقاء لوحدة الأمة وإثراء لها بالعمل المشترك والتضافر المثمر، وذلك كله يتم في إطار البر والتقوى وبعيدًا عن الإثم والعدوان كما قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ (المائدة: ٢)